



فاطمة الوهيبية

حي بن يقظان: وحال الإنسان في كل زمان ومكان

هل تخيلت نفسك معزولاً في جزيرة لا يعيش فيها بشر؟ دون دين وصلاة تهدي روعك في وحشة تلك الجزيرة المعزولة؟ لعلك الآن تستحضر فلم *cast away*. أو ستخيل ماوكلي أو روبنسون كروزو، ولكن في تراثنا العربي الذي سبق هذا كله بكثير نجد قصة (حي بن يقظان). وقد وجد الكثير من الباحثين الأجانب والعرب في هذه القصة مادة غنية وعميقة لا يزالون حتى يومنا ينهلون منها ما استطاعوا. ومن هذه الدراسات الشيقة مقالة بعنوان (حي بن يقظان لابن طفيل والمعرفة والتنوير الأخلاقي في الإسلام الكلاسيكي) التي سأخصها هنا، وهي للأستاذ الألماني سيبيستيان والمنشورة في مجلة التفاهم.

عن القصة وصاحبها

حي بن يقظان: في أسرار الحكمة المشرقية هي قصة فلسفية دينية كتبت بين ١١٥٧-١١٨٢م وهي الوحيدة التي نجت من مؤلفات ابن طفيل التي ضاعت. أما المؤلف فهو ابن طفيل الذي لا نعرف عن حياته الكثير، ولكنه من سكان إسبانيا المسلمة (الأندلس) وكان مهتماً بشتى معارف العلوم وعمل طبيباً.

يعد العنوان الذي يحمل اسم بطل القصة (حي بن يقظان) مفتاحاً مرصعاً بالرمزية الأخاذة. فكلمة حي كما يقول غونتر طفيل للمعنيين المعنى اللغوي الدال على الحي أو الحيوي الفرد وهي تدل كذلك على المعنى العام للحياة، بالإضافة إلى كونه مرادفاً للفظة الناس أو الإنسانية. وهناك معنى ديني فلسفي مرتبط بالقرآن فالحي الكائن البشري التام لا يكتمل إلا بوصل أفعاله بالعقل الذي كرمه الله به. أما ابن يقظان فهي من ناحية دينية دلالة للخالق الذي لا تأخذه سنة ولا نوم وتحمل دلالة العقل الفاض لأفلاطون أو العقل الفعال لدى المحدثين.

آباء القصة وأبنائها

لقد كان هناك من ألهم ابن طفيل في كتابة هذه القصة فابن سينا كان أول الملهمين وأكثرهم تأثيراً فحتى اسم حي بن يقظان هو مقتبس من رسائل صوفية وهي: رسالة حي بن يقظان، رسالة الطير، سلامان وأبسال. وهناك قصيدة شعرية كتبت بالعبرية حملت اسم حي بن يقظان Hey Ben Meqitz للفيلسوف والعالم أبراهام بن عزرا الذي عاش في الأندلس وتأثر أياً تأثر بالثقافة والفكر الإسلامي. وهناك السهروردي الذي تأثر برسالة ابن سينا وألف عملاً بعنوان: «قصة الغربة الغربية» وهي معروفة كذلك باسم رسالة حي بن يقظان. وكما كان لهذه القصة آباء مؤسسون، هناك أيضاً أبناء وتلاميذ تأثروا بها ومنهم: ابن رشد الذي كتب شرحاً لقصة ابن طفيل، ونور الدين الجامي الذي كتب قصيدة صوفية اسمها «سلامان وأبسال» متأثراً بما أورده ابن سينا وابن طفيل، وهناك «الرسالة الكاملة في السيرة النبوية» التي ألفها علاء الدين بن النفيس رداً على قصة حي بن يقظان. وتعد تأثير هذه القصة نطاقاً العربي وتلقته أوروبا باهتتان كبير فظهرت الدراسات عنها والترجمات ومن أبرز المعجبين بها: ألبير الكبير و توما الأكويني وفولتير وروسو وديدرو والألماني

٦- المرحلة العمرية (٥٠ سنة): حيث يقول إنه «رأى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وهي كما نعلم عبارة للنبي محمد عليه الصلاة والسلام، ويقول غونتر أن هذه العبارة تطابق أيضاً الرسالة الأولى لبولس الرسول إلى أهل كورنثوس (التوراة، ١، رسالة إلى أهل كورنثوس ٢: ٩). وكذلك خاتمه القصة التي يخاطب فيها حي القارئ فهي على غرار رسالة بولس الرسول.

من أهم استنتاجات حي بن يقظان

حين شارك حي بن يقظان أفكاره حول الدين مع عامة الناس من الجزيرة المباشرة لم يستطيعوا فهم عمق هذه التفسيرات وانفضوا من حوله عائدین إلى تفسيراتهم البسيطة.

حين رأى حي الناس وكيفية تعاطيهم مع الحياة أدرك أن غالبيتهم العظمى يصرفون جل وقتهم في ملاحقة الماديات، مرتاحين إلى تصوراتهم البسيطة عن الله دون محاولة فهم الله والتعمق في معرفته.

أهم استنتاجات غونتر

١- القصة تكشف عن قدرات البشر المعرفية التي تمكنهم من التفاعل بالعقل مع محيطهم المادي وكذلك مع ما هو إيماني.
٢- أهم أهداف ابن طفيل هو تمكين العقل للفهم والاستنباط والتجريب كونه هبة من الله يجب إعمالها. وهو يعتقد أن العبادات بظاهرها الشكلية والطقوسي لا تحقق الإصلاح وأن الإنسان قادر على إيصال الرسائل الإلهية الكبرى دون الحاجة إلى الرسل.

٣- ينتقد ابن طفيل حال المسلمين الذين اختزلوا دينهم في المذاهب والعبادات الشكلية، وانتقد العلماء ذوي التوجهات الأرثوذكسية كالغزالي، وهو يؤمن بإمكانية وجود صلة بين العبد والله دون وصاية وتعقيد وعبادات جامدة.

٤- تمكن ابن طفيل من استخدام المرويات والتعبير الرمزية جامعاً في سياق واحد الفلسفة العقلية وروح الحكمة الصوفية. وهو يشدد على فكرة أن الله هو المعلم الأول والأعلى للبشرية.

إن تخيل العزلة ووضع النفس مكان حي بن يقظان مهم لكل إنسان في أي زمان، فهو اختبار مهم للعقل وفرصة لمعرفة خياراتنا الحقيقية التي لم نرثها ولم تكن نتيجة الاتباع الأعمى.

جوتهودل إفرانيم ليسنغ ودانييل دوفو الذي ألف القصة الشهيرة (روبنسون كروزو) وهو أول من ألف الرواية في أنجلترا وروديار كبلنغ مؤلف (كتاب الأدغال) وبطله المعروف ماوكلي. وكذلك الأمريكي بوروز صاحب رواية طرزان وحتى الرواية الحديثة «حياة بي» لمارتل. هذا التراكم المعري لقصة حي بن يقظان دليل على أن قصة حي بن يقظان قصة إنسانية تجاوزت حدود الدين والجغرافيا وجمعت في طياتها قلق الإنسان وهمومه الوجودية وأن القيم الإنسانية هي قيم مشتركة لا تخص ديناً بعينه.

أطوار حي بن يقظان

مرت شخصية حي بن يقظان بأطوار رئيسية قسمها غونتر إلى ستة أطوار:

١- المرحلة العمرية (شهر إلى ٧ سنوات) الطفل الرضيع الذي عثرت عليه طيبة وربته مع صغارها استمر حتى السابعة حيث أدرك أنه إنسان ومختلف عن ترعرع بينهم.

٢- المرحلة العمرية (٧ سنوات إلى ٢١ سنة): مرحلة الملاحظة والتجربة وتكيف الطبيعة حسب حاجته. مشى منتصباً لأول مرة وقام بتغطية جسمه بالورق والريش، وبنى لنفسه بيتاً وسخر النار لحاجته. وفي هذه المرحلة ماتت أمه الطيبة فحزن وشق صدرها ورأى القلب نضه مملوء بالدم ونصفه فارغ فأدرك أن قوة الحياة كانت تسكن ذلك الجزء الفارغ وجسدنا بدونه جثة هامدة. وفيه تعلم من الغربان دفن الجثة تماماً مثل قصة الأخوة الأعداء في التوراة وقصة قابيل وهابيل في القرآن.

٣- المرحلة العمرية (٢١ سنة إلى ٢٨ سنة): استنتج أن للحوادث أسباباً ونتائج. وتأمل السماء ونجومها واستنتج أن لا بد من تلك الأجرام من مصدر قوي يمدّها بالنور وفيها ميز الأفراد وعرف الأنواع والأصناف.

٤- المرحلة العمرية (حياته إلى حدود سن ٣٥ سنة): زادت تأملاته في الكون والأفلاك وذلك العالم الممتد وبدأ يشعر أن لا بد لهذا الطبيعة اللامتناهية خالق لا متناه في قدرته وقوته.

٥- المرحلة العمرية (من البلوغ وحتى سن الخمسين): وفيها بدأ الوعي بالدين وربط أحداث الدين بعالم آخر وأن كل ما هو حولنا لا بد له من وجود قوة تحركه، وطور حي سلوكاً لإيجاد علاقة بهذه القوة العليا فعرف العبادة والتأمل.